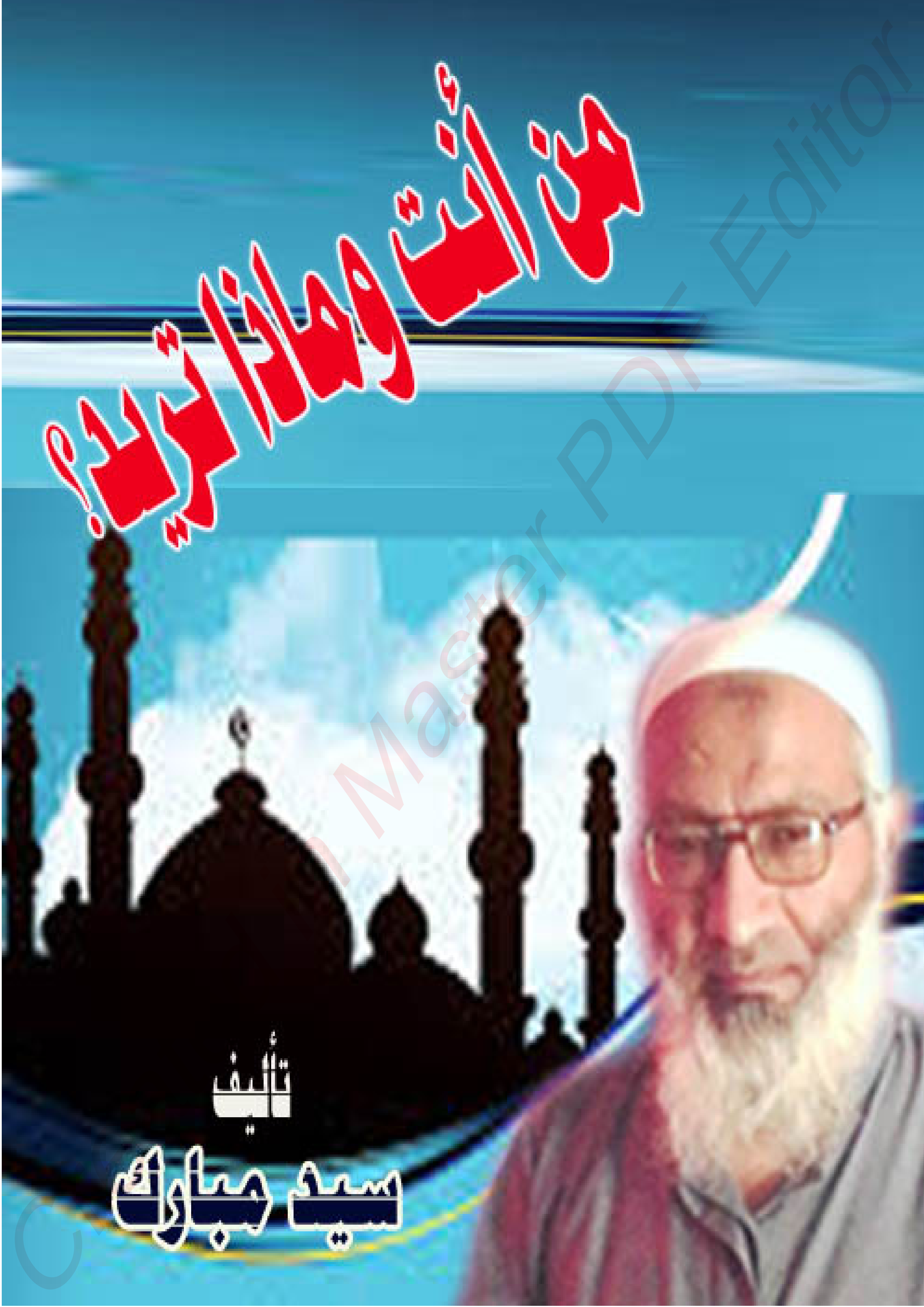

من أنت وماذا تريد؟
تأليف
سيد مبارك

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }(آل عمران : ١٠٢)

.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } (النساء : ١) .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد .. فأن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمداً وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد..

هذه الرسالة علي الرغم من صغر حجمها ألا أنها عظيمة النفع أن شاء الله تعالي ..

لماذا ؟

لأنها تحوي بين صفحاتها إجابة هذا السؤال الهام .. من أنت .. وماذا تريد ؟

ولا ريب أننا جميعاًُ نعلم إجابة هذا السؤال !!

ولكن القليل منا من وضع أجابته موضع التنفيذ العملي بعيداً عن لغو القول و سلبية التنفيذ أمام فتن الدنيا وزينتها وطغيان الماديات وضياع القيم والمباديء وازدواجية المعايير،ومحاربة السنة وورثة الأنبياء من العلماء الثقات والدعاة المخلصين ، حتي صارت السنة بدعة والبدعة سنة والحق باطلاً والباطل حقاً وأختلط الحابل بالنابل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لقد أصاب الكثير من المسلمين في عصرنا هذا إلا من رحم ربي عمي البصر والبصيرة وانتشر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ..كما قال تعالي : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١))–الروم

ومن ثم يتبين لك أخي القاريء أهمية هذه الرسالة في توجيهك وإرشادك إلي الطريق القويم والصراط المستقيم بعيداً عن أهواء النفس وضلال الفكر في يسر وسهولة لكي تكون إجابتك عن هذا السؤال من أنت .. وماذا تريد ؟

إجابة يؤيدها التطبيق العملي الذي يرضي رب العالمين وتنال به شفاعة النبي الأمين ويكتب لك بها القبول في الدنيا والآخرة أن شاء الله تعالي ،والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،

كيف نعرف أنفسنا ؟

أخي القاريء..من أنت وماذا تريد ؟

إجابة هذا السؤال لا تحتاج إلي جهد أو مشقة .. لماذا ؟

لأنها واضحة جلية ...أنا مسلم وأريد الله والدار الآخرة...تلك هي الإجابة وهي كما تري هينة وبسيطة ولكن !!

هذه الحقيقة البديهية تحقيقها علي ارض الواقع أمر في غاية الصعوبة وذلك لعدة أسباب منها:

١-طغيان العادات والتقاليد والبدع علي تعاليم الكتاب والسنة المطهرة

٢-موت العلماء الثقات وندرتهم في عصرنا الحالي والذين يستريح المرء لكلامهم ويثق في علمهم ويتخذهم قدوة.

٣-علو أهل المنكر علي أهل المعروف وبالتبعة انتشار الفتن الذي تذهب بلب المرء وعقله .

ومن ثم الأمر الذي يجب التنبيه عليه والتحذير منه هو عدم أدعاء الجهل بمعرفة إجابة هذا السؤال الحيوي .. من أنت وماذا تريد؟

وألا يلزم قطعاً أخي القاريء عند قرأتك لهذه السطور أن تغلق الكتاب فليس في استمرارك في القراءة فائدة تذكر ، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

لأن في قولك: أنا مسلم وأريد الله والدار الآخرة هي تسليمك وانصياعك للحقيقة التي يدعو لها ديننا..الإسلام والإيمان ، وعدم إقرارك بذلك يقدح في صحة إسلامك وإيمانك وذلك هو الخسران المبين.

قال تعالي : " قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ (٨٥) "-آل عمران

ومن ثم يتبين لنا أن في الإسلام والإيمان بالله والدار الآخرة حقيقة الوجود والمعني الحقيقي للعبودية التي هي الغاية من خلق الإنسان كما قال تعالي) وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ (٥٨) (-الذاريات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العبودية(١/٥) ما مختصره:

فالدين كله داخل في العبادة وقد ثبت في الصحيح [أن جبريل لما جاء إلي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال : الإسلام أن تشهد

أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال : فما الإيمان ؟

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ثم قال في آخر الحديث (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم)أخرجه البخاري في الإيمان ح/٦٠، ومسلم مثله ح/٩ قال:فجعل هذا كله من الدين ثم قال–رحمه الله–:
والدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان أى أذللته فذل ويقال ندين الله وندين لله أي نعبد الله ونطيعه ونخضع له ،والعبادة أصل معناها الذل أيضا يقال طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهى تتضمن غاية الذل ولله بغاية المحبة له فإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ثم العشق وآخرها التتيم.
يقال (تيم الله) أي عبد الله فالمتيم المعبد لمحبوبه ومن خضع لإنسان مع بغض له فلا يكون عابدا ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له كما قد يحب ولده وصديقه ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله عنده

أعظم من كل شيء بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا لله فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا قال تعالى : { قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ (٢٤) – ٢٤ التوبة

فجنس المحبة يكون لله ورسوله كالطاعة تكون لله ورسوله والإرضاء لله ورسوله { واللَّهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) } [٦٢ التوبة] ،والإيتاء لله ورسوله { ولَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ } [٥٩ التوبة. اهـ]
قلت: ومن هنا يتبين لنا صعوبة التطبيق العملي للوصول إلي أعلي درجات السمو الروحي الذي لا يكون هناك أحب إلي نفسك من الله ورسوله صلي الله عليه وسلم ، ولكن بالإخلاص والصبر علي المكاره واليقين بالله تعالي سوف نري العجب العجاب..

وسنعرف أنفسنا جيداً.. وندرك سبل تحقيق غايتنا وأمانينا ونصل بأنفسنا إلي أعلي درجات غني النفس والتي بها تحيا القلوب وتستقيم علي أمر الله تعالي .
-هذا وقد ثبت عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال "ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس"- أخرجه البخاري في الرقاق ح/٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ح/١٠٥١

وهذا حق لا مرية فيه فمتى استغنت النفس استغنى القلب عن اللجوء لغير الله تعالي واستقام علي الطريق القويم وعندئذ تحقق النفس التطبيق العملي والحرفي لمضمون هذا السؤال" من أنت وماذا تريد؟ "

.. قال ابن القيم في طريق الهجرتين(١/ ٧١) ما مختصره:
"كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب وصلاح النفس متقدم على إصلاحها هكذا قيل وفيه ما فيه لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم وقد قال النبي "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد إلا وهي القلب "
ثم قال بعد كلام :

وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيما لله سبحانه وأمره وإيمانا به واحتسابا لثوابه وخشية من عقابه لا طلبا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم وهربا من ذمهم وازدرائهم وطلبا للجاه والمنزلة عندهم فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه وأنه أفقر شيء إلى المخلوق فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها لأنها إذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعا واختيارا ومحبة وإيمانا واحتسابا بحيث تصير لذتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي يقول "يا بلال أرحنا بالصلاة" ([1])
وقال: "حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة"- أنظر صحيح الجامع ح/٣١٢٤

فقرة العين فوق المحبة فجعل النساء والطيب مما يحبه وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة الله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه فكيف لا تكون قرة العين وكيف تقر عين المحب بسواها فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأي فقر يخشى معه وأي غنى فاتها حتى تلتفت

[1] -أنظر صحيح سنن أبي داود للألباني ح/٤٩٨٦ وصحة متنه" قم يا بلال فأرحنا بالصلا "

إليه ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها ويصير مجانسا لطبيعة القلب فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لوامة وإنما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها وانقلاب طبعها لاستغناء القلب بما وصل إليه من نور الحق سبحانه فجرى أثر ذلك النور في سمعه ونثره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله وأحاط بجهاته من فوقه وتحته ويمينه ويساره وخلفه وأمامه وصارت ذاته نورا وصار عمله نورا وقوله نورا ومدخله نورا ومخرجه نورا وكان في مبعثه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب وأيضا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجب لفقرها إلى الشهوات فكل منهما موجب للآخر وترك الأوامر أقوى لها من افتقارها إلى الشهوات فإنه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة كما قال تعالى :
(أن الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ)- العنكبوت٤٥
ثم قال-رحمه الله-:- وإذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما إغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب ففاض منه إليها استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب وسلمت به عن الأمر المسخوط وبرئت من المراءاة ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنا وظاهرا ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)-هود
وقال سبحانه(الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)) – الأحقاف اهـ
وسوف نطرح ثلاثة خطوات واحدة تلو الأخرى وهذا لا يمنع البتة من أن تكون هناك خطوات أخري يراها البعض لازمة للوصول للسمو الروحي وغني النفس وبالتبعة التطبيق العملي للإجابة علي هذا السؤال "من أنا وماذا أريد ؟ " وكل إنسان أدري بدخيلة نفسه والله المستعان .
الخطوة الأولي : تصنيف النفس حسب طبقاتها
أخي القاريء..الخطوة الأولي في طريقنا لتحقيق الإجابة العملية علي هذا السؤال من أنت وماذا تريد؟.. تبدأ في معرفة طبقات النفس المختلفة حتي تستطيع معرفة إلي أي طبقة تنتمي إليها نفسك التي بين جنبيك في طاعتها وعلاقتها بالله تعالي وأنابتها إليه، ومن ثم تبدأ الخطوة الثانية وهي محاسبة النفس عن الخطأ وتهذيبها وتقويمها للأفضل ثم الإنتقال للخطوة الثالثة وهي علاج عيوبها وصقل مميزاتها بالسبل المختلفة لهدايتها إلي الحق بأذن الله تعالي.، ثم الخطوة الرابعة وهكذا حسبما يري صاحبها.
والنفس البشرية في طاعتها لله وعلاقتها وتوبتها وتعلقها به سبحانه تنقسم إلي أربع طبقات:
قال صاحب الأحياء ([٢])(٤٣/٤) ما مختصره:

[٢] - هو كتاب "أحياء علوم الدين" لمحمد حامد الغزالي -رحمه الله تعالي

أعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات الطبقة الأولى أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبه النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التى ترجع إلى ربها راضية مرضية .ثم قال: الطبقة الثانية تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا انه ليس ينفك عن ذنوب تعترية لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهى أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينه الآدمى قلما ينفك عنه وإنما غاية سعية أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفه الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى (الَذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغْفِرَةِ)–٣٢ النجم

فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى (والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)آل عمران/١٣٥

فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه .

الطبقة الثالثة :أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو اقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)–التوبة/١٠٢

فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما بختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فإن

تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الأزل

ثم قال –رحمه الله–

فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى (ونَفْسٍ ومَا

سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠))–الشمس

فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان .

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنور فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب يعد عنه ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظراه

ولا يغيب عن فطنة القاريء الكريم إن الإنسان تختلف طبيعة نفسه باختلاف الظروف والأحوال فقد يجد نفسه في بعض الأحوال مقبلاً علي الله ..يخشع في صلاته .. يبكي في دعائه وقنوته..يكثر من قراءة القران وتدبره.. يحافظ علي أذكار الصباح والمساء ...يحب كل خير .

وفي أحوال أخري يجد نفسه ساهي لاهي لا يخشع في صلاته وربما يتكاسل عن أدائها في أوقاتها وربما يصليها منفرداً تاركاً فضل الجماعة دون عذر هاجراً لكتاب الله لا يقرأ فيه ألا بين

الفينة والفينة ..قليل الدعاء والذكر وغير ذلك .وبِعلم المرء بالطبقة التي تنتمي إليها نفسه التي بين جنبيه في علاقتها بالله تعالي وعبوديتها له بناء علي طاعاته المختلفة من الأعمال والأقوال يبدأ محاسبته لها وتلك هي الخطوة الثانية .

الخطوة الثانية : محاسبة النفس علي الأعمال والأقوال

أخي القاريء:

النفس عن الأعمال والأقوال لن تخرج عن سؤالين في نهاية كل يوم:

الأول: ماذا فعلت نفسي أو قالت اليوم؟ ...الجواب كذا وكذا..

الثاني : وما حكم الشرع في هذا الفعل أو القول ؟... الجواب كذا وكذا.

وبناء علي هذين السؤالين تعرف طبيعة نفسك من حيث الطاعة والمعصية وبالتالي الطبقة التي تنتمي إليها.

وينبغي التنبيه هنا أن الكتاب والسنة هما المعيار الحقيقي للحكم علي النفس وبيان لأي طبقة تنتمي إليها .

بمعني لا تفتح للهوي والشيطان باباً للتدليس وخداعك وتسويف التوبة والإصرار علي المعصية فكل ذلك وما أشبهه يؤدي إلي هلاكها وليس لنجاتها وأنت ادري بدخيلة نفسك ،ومن ثم نكرر أن "الكتاب والسنة" هما الأساس الذي يقوم عليه كل تشريع دنيوي وفيهما فقط غني النفس وفلاحها ونجاتها وفي غيرهما هلاكها وضياعها، والذي يقوم حكمهما علي النفس علي الحقائق المجردة بعيداً عن التبريرات والمعاذير إلا ما جاء الترخيص فيه تيسيراً علي العباد ورحمة بهم.

ومثال علي ما نقول لبيان المقصود ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة : الصلاة مثلا لو أخرها العبد دون عذر شرعي وإنما كسلاً وتهاوناً فيها حتي خرج وقتها ما حكم ذلك في

الشرع " الكتاب والسنة "

–قال تعالي (أن الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً (١٠٣)–النساء

– وقال تعالي (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥))–الماعون–

وقال النبي صلي الله عليه وسلم " أفضل الأعمال أو العمل الصلاة لوقتها وبر الوالدين "([٣])

– وقال النبي صلي الله عليه وسلم" خمس صلوات كتبهن الله على العباد من جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن

[٣] - أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ح/٥٢٧، ومسلم في الإيمان ح/٨٥

فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة "([4])

هذا قول الله وذاك قول الصادق المعصوم صلي الله عليه وسلم ترغيباً وترهيباً ، ومنهما يتبين لنا الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه النفس ، ولينظر العبد رد فعل نفسه لهذه المعصية وليري من أي طبقة هي ليبدأ بعدها علاجها من عيوبها وتهذيبها وبيان سبل تقويمها وتلك هي الخطوة الثالثة ، وقس علي ما ذكرنا كل عمل وقول يصدر عن النفس .

ولأبن القيم في إغاثة اللهفان (١/٨١) كلاماً يشمل علي كل ما نريد قوله هنا وفيه ما يكفي ويشفي قال –رحمه الله–ما مختصره:

ومحاسبة النفس نوعان : نوع قبل العمل ونوع بعده فأما النوع الأول :

فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه

قال الحسن رحمه الله : رحم الله عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر

وشرح هذا بعضهم فقال :

إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولا ونظر : هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع فإن لم يكن مقدورا لم يقدم عليه وإن كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر : هل فعله خير له من تركه أو تركه خير له من فعله فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر :

هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر :

هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار.

وإن وجده معانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورا له ولا كل ما يكون مقدورا له يكون فعله خيرا له من تركه ولا كل ما يكون فعله خيرا له من تركه يفعله لله ولا كل ما يفعله لله يكون معانا عليه فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما

[4] - أخرجه النسائي وغيره وهو في صحيح الجامع ح/٣٢٤٣

يقدم عليه وما يحجم عنه.

ثم قال – رحمه الله تعالي– محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور تقدمت وهي : الإخلاص في العمل والنصيحة لله فيه ومتابعة الرسول فيه وشهود مشهد الإحسان فيه وشهود منة الله عليه وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله

فيحاسب نفسه : هل وفى هذه المقامات حقها وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد : لم فعله وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحا أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.اهـ

قلت: وما ينبغي التنبيه عليه دوماً هو المحافظة علي أعلي مستويات للنفس وصلت إليها ووضع السبل للترقي للمستوي الأعلى علي المدي القصير والطويل ..

ومن ثم نبدأ الخطوة الثالثة ببيان هذه السبل لعلاج عيوب النفس وتهذيبها وتقويمها.

الخطوة الثالثة: سبل علاج النفس وتهذيبها وتقويمها

ويكون ذلك علي مرحلتين لإصلاح النفس وتهذيبها.

الأولي قصيرة المدي لا تحتمل التأجيل والتسويف وإلا هلكت النفس وباءت بسخط الله تعالي.

والثانية طويلة المدي فيها جماع كل خير يؤدي لنجاتها وفلاحها في الدنيا والآخرة.

ولنبدأ في بيان الأمر والله المستعان.

سبل علاج النفس وتقويمها علي المدي القصير

وتلك السبل لازمة لاستقرار النفس والمحافظة علي مستواها من الهبوط للأدنى فيصعب العلاج ويطول الأمر ويفقد المرء الأمل فتخور عزيمته وتضعف قوته ويهلك نفسه، وأكتفي هنا بذكر سبيلين من أهم السبل التي فيهما حياة النفوس ، وفي تركهما ضياع للنفس وليس في إصلاحها بعد ذلك فائدة البتة وهما:

١ –أخلاص التوحيد لله تعالي بلا شوائب.

٢ –المحافظة علي الصلوات الخمس المفروضة .

و لا مفر من تقويم النفس وترويضها علي هذين السبيلين علي المدي القصير دون تأجيل أو إبطاء إذا نوي العبد بإخلاص إصلاح ما بينه وبين الله جل شأنه حقاً، وقد يكون هذا صعب

وشاق بعض الشيء علي النفس التي طبعت علي المعصية ولكنه فيه نجاتها وفلاحها .

وإليك البيان والتوضيح لهما والله المستعان.

١– إخلاص التوحيد الله تعالي بلا شوائب:

ولماذا التوحيد ؟

لأن الشرك الذنب الذي لا يغفره الله تعالي لقوله (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا{٤٨} .

ولقوله تعالي:(ومَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)–البينة

– وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – (أتاني آت من ربي فأخبرني أو قال بشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق)([٥])

وأنت بتوحيدك لله يكون لنفسك حقاً عند الله تعالي أن يدخلها الجنة:

– عن معاذ بن جبل قال كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير " فقال يا معاذ تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله قال قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا قال قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا)([٦])

فإياك والشرك سواء كان أكبر كالطواف بالقبور ودعاء الأموات من دون الله ، أو الذبح والسجود لغيره أو ما أشبه ذلك مما يخرج الإنسان من الملة .

أو شرك أصغر لا يخرج الإنسان من الملة ولكنه لا يأمن علي نفسه من سخط الله عليه فضلا عن إحباطه للعمل ،ومن أنواع هذا الشرك الحلف بغير الله، ، أو تصديق العرافين والدجالين ، أو الرياء أو الطيرة وما أشبه ذلك.

ويجب علينا ترويض النفس علي التوحيد الخالص لله تعالي بأنواعه الثلاثة :

*(توحيد الربوبية) .. أي لا رب سواه وإفراده سبحانه وتعالى بالخلق، والملك، والتدبير.. قال تعالي: (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو (فاطر، الآية " ٣"

* (توحيده الألوهية) ..أي لا اله سواه وإدراك أن من يشرك به ويموت علي ذلك مصيره النار.. لقوله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً (النساء/" ٣٦ "

*(توحيد الأسماء والصفات)..أي إفراد الله سبحانه وتعالى بما سمي ووصف به نفسه في

[٥] -أخرجه البخاري في الجنائز ح/٢٣٧ ، ومسلم في الإيمان ح/٩٤

[٦] أخرجه مسلم في الإيمان ح/٣٠، والبخاري في الجهاد ح/٢٨٥٦

كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، مثل صفة النزول من السماء والضحك والفرح والعجب

واليد والعين والرجل..الخ ، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه وتعالي لنفسه وما أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل "
– لقوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى/ ١١ ..
٢– المحافظة علي الصلوات الخمس المفروضة:
الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام وهي عمود الدين وذروة سنامه من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين ، وهي الصلة التي تربط العبد بربه خمس مرات في اليوم والليلة ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..

لماذا ؟
لأنها تجعل العبد دائماً مراقباً لله تعالى في أعماله وأقواله .. في ذهابه وإيابه .. في سريرته وعلانيته لأنه سبحانه معه حيث كان فتطمئن نفسه وتسكن جوارحه ويستريح قلبه وفؤاده من هموم الدنيا ومتاعبها ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حان وقت الصلاة يقول لمؤذنة بلا ل رضي الله عنه (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)([7])
ومن ثم أداء الصلاة أمر لا يحتمل التأجيل وإلا وقع صاحب هذه النفس المتمردة علي شرع الله تحت وعيد قوله تعالي: { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا{٥٩} إلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ولا يُظْلَمُونَ شَيْئًا {٦٠} } (مريم).
قال بن كثير في تفسيره ما مختصرة:
{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } أي قرون أخر، { أَضَاعُوا الصَّلاةَ } ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غياً، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال البعض: المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، وقال غيرهم كالأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً.
وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة}، ثم قال: لم

تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وقال الحسن

[7] ـ أخرجه أبي داود في الأدب وصحح الألباني إسناده في سنن أبي داود ح/٤٩٨٦

البصري: عطَّلوا المساجد ولزموا الضيعات) ([8])(

– وقوله تعالي: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ {٤٢} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ {٤٣} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ {٤٤} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ {٤٥} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ {٤٦} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ {٤٧ }فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ {٤٨} } –المدثر

وفي السنة الصحيحة عشرات من الأدلة فيها من التحذير والوعيد الشديدين ما يجعل ترك الصلاة كبيرة من أعظم الكبائر التي تؤدي بصاحبها إلي النار والعياذ بالله الرحيم منها من ذلك :–

* ما رواه أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف)([9])

* ماروواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال(سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)([10])

وقال النووي في شرح الحديث ما مختصره:– (ومعنى بينه وبين الشرك ترك الصلاة أن الذي يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة ، فإذا تركها لم يبق بينه وبين الشرك حائل ، بل دخل فيه . وأما تارك الصلاة فإن كان منكرا لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين ، خارج من ملة الإسلام إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه ، وإن كان تركه تكاسلا مع اعتقاده وجوبها كما هو حال كثير من الناس فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي رحمهما الله والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب فإن تاب وإلا قتلناه حدا كالزاني المحصن ، ولكنه يقتل بالسيف . وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر..)

ومن ثم من أراد لنفسه النجاة ينبغي أن يحملها علي عمل المكاره فالجنة لا يدخلها أحداً إلا بمشقة، والصلاة يجب أدائها في أوقاتها وهي ثقيلة علي النفوس الغافلة ولا يواظب عليها ألا من عرف كيف يروض نفسه ويقومها علي المكاره ومرضاة الله تعالي.

وكلمة أخيرة قبل أن نشرع في بيان السبل علي المدي الطويل لأصحاب النفوس الضعيفة الذين لا يجدوا غضاضة في ترك الصلاة ..أقول لهم: لقد رخص الشرع لأصحاب الأعذار

---

[8] - تفسير القرآن العظيم لابن كثير(٣/١٢٥)

[9] - أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان وصحح الألباني إسناده في المشكاة ح/٥٧٨

[10] -أخرجه مسلم في الإيمان ح٨٢، وأبو داود في السنة ح/٤٦٧٨

بالصلاة في البيوت حتي زوال العذر كمرض أو مطر أوبرد شديد أو ظلمة وغير ذلك، وكذلك رخص بالتيمم عند فقد الماء والجمع بين الصلوات عند المشقة وقصرها عند السفر وما أشبه ذلك، وفي ديننا سعة ولله الحمد والمنة .

ولكن أبدا لم يرخص الشرع في تركها بالكلية ولو فرضاً واحداً مهما كانت الأعذار والمبررات اللهم إلا من ينطبق عليه قول النبي صلي الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم "([11])

ثم أني أجد ما أقوله لمن يستسلم لنفسه الأمارة بالسوء ويترك الصلوات الخمس المفروضة أو بعضها إلا قوله تعالى جل شأنه:

{ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ {١٤} وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ{١٥} } (القيامة ١٤-١٥)

فقد صارت الصلاة عند مثل هؤلاء ثقيلة على القلوب وصار لسان حالهم يقول:

(يا بلال أرحنا من الصلاة) وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثانياً :السبل التي تعين النفس علي المدي الطويل:

وهذه السبل تحتاج لتحقيقها جميعاً علي المدي الطويل لصبر ويقين برحمة الله لا يتزعزع وتوكل عليه وعزيمة لا تلين، ومن هذه السبل علي سبيل المثال لا الحصر و فيها مجمل الأمر في اعتقادي

١-لا تفتر عن ذكر الله تعالي.

٢-أتبع بالسيئة الحسنة تمحوها وحافظ علي حسناتك.

٣-تفقه في دينك لتعبد الله علي بصيرة من أمرك.

٤- لا تفرح بما أتاك الله ولا تحزن علي ما فاتك.

٥-لا تغتر بكثرة الهالكين والحق أحق أن يتبع.

٦- لا تخشي إلا الله تعالي ولا تأخذك فيه لومة لائم.

٧- إياك وطول الأمل في الدنيا واذكر الموت والبلي.

٨- لا تحب ألا في الله ولا تبغض ألا فيه.

٩-لا يغرك الحسب والنسب والمال عن أمر الحساب

١٠- تخلص من آفات الجوارح المحبطة للعمل .

١١-لا تهمل محاسبة نفسك ومراقبتها يومياً

١٢-لا تتحمل أوزار غيرك وكن قواما علي اهلك

١٣- أطب مطعمك ولا تأكل من حرام أو شبهة

[11] - قال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٥١٢ في صحيح الجامع

١٤- أحسن الظن بالله ولا تيأس من رحمة ابدأ
١٥- جاهد نفسك علي ترك الشهوات وإتيان المكاره
١٦- لا تقترب من مواضع الفتن حتي لا تقع فيها.
١٧-التزم بمنهج أهل السنة والجماعة لأنها الفرقة الناجية
ولضيق مساحة الكتاب لبيان كل هذه السبل أكتفي هنا ببيان الثلاثة الأولي منهم واترك الباقي لفطنة واجتهاد القاريء في معرفة تفاصيلها وبيانها.

وأوصيه بالبحث والتأمل في هذه الكتب الثلاثة النفيسه للعلامة ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمهما الله تعالي وفيها ما يكفي ويشفي والله المستعان. ١-إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ٢-الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي
٣-روضة المحبين ونزهة المشتاقين
ولنشرع ببيان السبل الثلاثة الأولي بلا تطويل ممل أو تقصير مخل والله المستعان
١-لا تفتر عن ذكر الله تعالي:
قال تعالى " فاذكروني أذكركم واشكروا لي " (البقرة ١٥٢)

وقال تعالى " واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين " (الأعراف ٢٠٥)
– وقال النبي صلي الله عليه وسلم " مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت"([١٢])
وأعلم أخي القاريء أن الذاكر لله تعالي قريباً من ربه وفي جناب رحمته وكرمه تستغفر له ملائكته وينبغي أن يلتزم بآداب الذكر وشروطه ليكون مقبولاً عند الله تعالي وتسمو نفسه بقربها من الله تعالي .
– قال النووي في كتابه " الأذكار(١/ ص ١٠) ما مختصره:
الذكر يكون بالقلب ، و يكون باللسان ، و الأفضل منه ما كان بالقلب و اللسان جميعاً ، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء ، بل يذكر بهما جميعاً و يقصد به وجه الله تعالى
ثم قال – رحمه الله تعالي :
اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح و التهليل و التحميد و التكبير و نحوها ، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى ، كذا قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه و غيره من العلماء .

[١٢] - أخرجه البخاري في الدعوات ح/٦٤٠٧

و قال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هي مجالس الحلال و الحرام ، كيف تشتري و تبيع و تصلي و تصوم و تنكح و تطلق و تحج و أشباه هذا .اهـ

والنفس تطمئن لما يطمئن له القلب والقلب يطمئن بذكر الله كما قال تعالي :" الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨ "–الرعد

ومن ثم لا مندوحة من كثرة الذكر لما له من الفوائد العظيمة في صلاح النفس والقلب معاً .

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالي – في الوابل الطيب من الكلم الطيب(١/ ص٥٦)عن فوائد الذكر ما مختصره :

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما ، وجلاؤه بالذكر ، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء . فإذا ترك صدئ ، فإذا جلاه . وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب ، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر .

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه ، وصدأه بحسب غفلته ، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل ، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه . فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً . وهذا أعظم عقوبات القلب .

وأصل ذلك من الغفلة وأتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره ، قال تعالى : " ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً " .

فإذا أراد العبد أن يفتدي برجل فلينظر : هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً .

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع ، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه ، وفسر بالإسراف أي قد أفرط ، وفسر بالإهلاك ، وفسر بالخلاف للحق . وكلها أقوال متقاربة ، والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات ، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجده كذلك فليبعد منه .

وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل وأتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر ، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت .

ثم ذكر رحمه الله تعالي– عشرات من فوائد ذكر الله تعالي والتي فيها صلاح القلوب والنفوس نذكر بعضها هنا والله المستعان :

١–أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره
٢–أنه يرضي الرحمن عز وجل
٣–أنه يزيل الهم والغم عن القلب
٤–أنه يجلب الرزق
٥–أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة
٦– أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة . وقد جعل الله لكل شيء سبباً وجعل سبب المحبة دوام الذكر .

فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلهج بذكره فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم .
٧–أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الاحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .
٨–أنه يورثه الإنابة ، وهي الرجوع إلى الله عز وجل ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله ، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه ، وملاذه ومعاذه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .
٩–أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى ، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه .
١٠–أنه يورثه ذكر الله تعالى له كم قال تعالى : " فاذكروني أذكركم " ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى "من ذكرني في نفسه ذكرته
١١–أنه يحط الخطايا ويذهبها . فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

١٢– أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل . فإن العبد لا بد له من أن يتكلم . فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى .
والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
٢– أتبع بالسيئة الحسنة تمحوها وحافظ علي حسناتك:

فلو نطق لسانك بكلمة لا يرضاها الله تعالي كغيبة أو نميمة أو كذبة فهذه سيئة وللمحافظة علي رجحان كفة حسناتك أتبع السيئة الحسنة ، وهذا ما أوصانا به الحبيب صلي الله عليه

وسلم قال: " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن "([١٣])
فعليك بذكر الله ولك بكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل نكبيرة صدقة .. أو قل بعدها استغفر الله العظيم وأتوب إليه –وإياك والإصرار علي الخطأ في الكلام فربما كانت كلمة تخرجك من الملة
لحديث البخاري" عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم"([١٤])
ومن رحمة الله إنه يجازي السيئة بالسيئة والحسنة بعشرا لحديث مسلم " عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا"([١٥]) فالمقصود أن عملت عملا لا يرضاه الله حرضك عليه شيطانك لغضب أو كبر عليك بعمل يمحو العمل السيئ لأن الحسنات تذهبن السيئات ..
وهذا الأمر يستلزم من العبد أن يكون مراقبا ومحاسباً لنفسه وألا هلك بتراكم السيئات وقلة الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله تعالي بقلب سليم.
ويجب علي من تستحل نفسه المعصية آياَ كانت أن يبادر إلي تقويمها وترويضها ولا يتركها علي هواها فتفسد عليه دينه ودنياه ، ولا يكتفي بإصلاح خُطاها بالحسنات الماحية بل لابد من تغييرها
للأفضل ولو بالتدرج وذلك عن طريق المجاهدة .
قال العلامة ابن القيم في الفوائد (١/٦٠) ما نصه:
قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)
علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوي وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة فى الله هداه الله سبل رضاه الموصلة الي جنته ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد قال الجنيد والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا فمن نصر عليها نصر على عدوه ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه . اهـ
٣–تفقه في الدين لتعبد الله علي بصيرة من أمرك:
اغلب عيوب وآفات النفس تأتي من الجهل بالحلال والحرام ولو تفقه العبد في دينه لأستطاع

[١٣] -أخرجه الترمذي في البر والصلة وصحح الألباني إسناده في الجامع ح/٩٧
[١٤] - أخرجه البخاري في الرقاق ح/٦٤٧٨
[١٥] -أخرجه مسلم في الإيمان ح/١٢٨

ترويض نفسه وتقويمها علي طاعة الله تعالي ، وفي القران والسنة الحث علي العلم والتعلم نصوص كثيرة أذكر منها:

–قوله تعالي { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا {١١٤} } (طه ١١٤)

–وقوله تعالي (يَرْفَعِ اللَّهُ الَذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١))–المجادلة

– ومن السنة قوله صلي الله عليه وسلم" لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها "([١٦]).

– وقوله صلي الله عليه وسلم " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلي الجنة "([١٧])

والوسيلة للتفقه تأتي من عدة طرق منها:

١–أن يحضر درسا أسبوعيا علي الأقل .. في المسجد أو عن طريق الاستماع أو المشاهدة .وليكثر من الإطلاع والقراءة لكتب العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة.

٢–أن يسأل أهل الذكر ويستفسر حتي يستوثق من الصواب عندما تستشكل عليه بعض المسائل لتوضيح ما لم يفهمه وليحذر من تفسيرها علي هواه فيفهم غير مرادها فيقع في معاصي لم يكن يرتكبها، ولتكن أسئلته في المهم وليس في إشكالات وتفاهات وإنما ما ينفع دينه ودنياه.

٣–أن يعمل بما يعلم ولا يكون التزامه أجوف لأن العمل بدون علم لا يكون والعلم بدون عمل جنون ..

يقول ابن القيم في كتابه –طريق الهجرتين– (٢٧٨/١) ما نصه:

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ويكون ضعيفا في القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها فهو فقيه ما لم يحضر العمل وإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان

[١٦] - أخرجه البخاري في العلم ح/٧٣، ومسلم في صلاة المسافرين ح/٨١٦

[١٧] - وإسناده (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٢٩٨ في صحيح الجامع للألباني

الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات فداء هذا من جهله وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم بل على طريق الذوق والوجد والعادة يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدري من يعبد ولا بماذا يعبده ؟

فتارة يعبده بذوقه ووجده وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كلهم عمي عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها فلا معرفة بالرب ولا عبادة له ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله ورجي له النفوذ وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته فإن القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل ما يريد .

والوقت كما قيل سيف فإن قطعته وألا قطعك فإذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع والله ولي التوفيق اهـ

عوائق([18]) وعلائق([19]) في طريق المعرفة

ليكتمل مضمون هذه الرسالة يكون من الجدير بالذكر أن نحذر القاريء الكريم عند تطبيقه العملي لإجابة سؤال هذه الرسالة ...من أنت وماذا تريد؟ ..

من عدة عوائق وعلائق سوف تعترض طريقه أجابته العملية لسسؤال الرسالة ..وهو أريد الله والدار الآخرة.

وذلك شاء أم أبي ومن هذه العوائق أجمالاً ما ذكره ابن القيم: في الفوائد (١٥٤) قال :ما مختصره:

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقة وهي ثلاثة أمور شرك وبدعة ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد وعائق البدعة بتحقيق السنة وعائق المعصية بتصحيح التوبة وهذه العوائق لا تتبين للعبد يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحسن بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر وإلا فما دام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

ثم قال – رحمه الله–

وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره وكذا بالعكس والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه .اهـ

..وبعد ..أختم هذه الرسالة بعد أن وصلت لنهايتها علي الرغم من حاجة الموضوع لمساحة أكبر ولكن فيما ذكرناه من وسائل للوصول للتطبيق العملي لإجابة سؤال هذه الرسالة .. من أنت وماذا تريد؟ فيه الكفاية ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي الصادق المعصوم صلي الله تعالي عليه وعلي اله وصحبه أجمعين.

[18] - جاء في السان لأبن منظور – (عوق) يَعُوقه عَوْقاً صرفه وحبسه ومنه التَّعْويقُ والاعْتِياق وذلك إذا أراد أمراً فصرفه عنه صارفٌ.

[19] - العوائق: أي الحواجز والموانع

فهرس الرسالة
